

آليات إنتاج الوجاهة الاجتماعية: مقارنة سوسيوأنثروبولوجية

Mechanisms production of social nobility: Socioanthropological approche

^{1*}عبد الرحيم العطري

جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية

Abderrahim El Atri^{*}

Mohamed 5 University, Rabat, Kingdom of Morocco

تاريخ الاستلام: 2021 /10/31 تاريخ القبول: 2021/11/09 تاريخ النشر: 2021/12/30

ملخص: تنشغل هذه المساهمة بتتبع مسارات الدرسين السوسيوولوجي للنخبة والتخيب، وذلك بهدف اكتشاف أهم التطورات التي عرفتها آليات إنتاج النخب، كما تولي أهمية خاصة للاجتهادات الأنثروبولوجية في مستويات التعاطي مع الوجاهة الاجتماعية.

فإذا كان المتن السوسيوولوجي والأنثروبولوجي، وفي مقاطع كبرى منه، قد انهجس بالتراتب الاجتماعي والتفاوت في السلط و النفوذ، فإن الحاجة ما زالت مستمرة إلى التدقيق المفاهيمي في تنزلات التراتب الاجتماعي، وهو ما تستلزم رصدًا لتشكيلات التخيب والترقي الاجتماعي، وتتبعًا لآليات امتلاك وتوسيع الرساميل الرمزية والمادية التي تساهم في إنتاج الوجاهة الاجتماعية، التي تتوزع بدورها على السلطة والنفوذ. فكل تفاوت، ومهما كان نوعه، ينتج سلطة ما، تتأطر بعدا وقبلا، بنفوذ سياسي أو روحي، يمارسه صاحب هذه السلطة على الآخرين من زبائنه وأتباعه. لهذا كله سينشغل هذه المساهمة بإعادة مفاهيم "النخبة" و"الوجاهة" و"التراتب الاجتماعي" إلى متنها السوسيوولوجي الأصلي، وانفتاحها الأنثروبولوجية الممكنة

الكلمات المفتاحية: النخبة، الوجاهة الاجتماعية، الهبة، الرأسمال

Abstract:

This paper seeks to dicover condition mechanisms of social nobility in the society, from the context which is mainly charactezied by culural mechanisms and symbolic envents.

The quistion of elite and social nobility is an area of values and societal change, which are related to the système of historical and cultural transformtions. As a structure to product society, we can say that the mechanisms of production nobility and elites are a good gate to learn and studying all sicietal transformtions, who make the sens of live.

This contribution aims to reveal some aspects of this fact social nobility, It also aims to highlight the role of sociological and anthropological approches in stadies of elite, that make a sens in this context, which reflected in research at multiple levels.

Keywords: Social Nobility, Elite, Capital, gift,

*عبد الرحيم العطري :

- مقدمة :

لم يكن الترتاب الاجتماعي غائبا عن بنية المجتمعات، حتى الأكثر عتاقة منها، ففي كل حين يجب أن ننتبه إلى وجود بنية تراتبية تتأسس على وجود فوارق بين من يملك ومن لا يملك، وأساسا بين من يحكم ويدبر وينتج القرار، أو على الأقل يساهم في صناعته، وبين من لا يحوز إلا القليل من الرساميل الرمزية والمادية، وما يتفرع عنها من سلط إقناع وتوجيه.

فالترتاب الاجتماعي، وفي جميع الأنساق، يظل نتاجا موضوعيا لتاريخ من العلاقات والممارسات التي تنكتب في المجال، وهذا ما يوجب التساؤل عن شروط إنتاج التراتبات الاجتماعية والثقافية في المجتمع، لاكتشاف انبناء العينية كترجمة واقعية لإنتاج وإعادة إنتاج الوجاهة الاجتماعية، التي تفترض وجود وجهاء وزبناء.

إن الترتاب الاجتماعي يدل على نوع من التفاوت في اقتسام الخيرات الرمزية والمادية للنسق، فثمة اختلال في الإفادة من هذه الخيرات، وهو ما ينعكس على الهرمية الاجتماعية التي تنتج في النهاية سائدين ومسودين، مالكين وغير مالكين. لأن الأمر يتعلق في البدء والختام باختلاف بين أفراد الجماعة الواحدة في وضعياتهم السوسيواقتصادية، ومن ثم الاختلاف أيضا في وضعياتهم الثقافية والسياسية، على اعتبار أن الترتاب الاجتماعي تنتج عنه تراتبات أخرى.

لا يكتمل الحديث عن سوسولوجيا النخبة و أنثروبولوجيا الوجاهة بدون استحضار الترتاب الاجتماعي كمفهوم دال على لاتكافؤ فرص امتلاك الرساميل الرمزية و المادية، فالتفكير في النخبة أو الوجاهة هو استدعاء قبلي للتراتبات التي تميز هذا المجتمع أو ذاك. فالترتاب يدل على تباين في توزيع الثروة و اقتسام فوائدها، الشيء الذي يؤدي إلى تقسيم المجتمع إلى فئات متميزة اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا.

إن فتح أي نقاس حول الترتاب الاجتماعي، يوجب الانتباه إلى أن التاريخ البشري عرف أربعة أنساق من الترتاب تتمثل في العبودية و الجماعات المغلقة (الكاست) و المراتب و الطبقات، والتي تنوعت من حيث استناداتها ما بين أسس دينية و قانونية وعلاقات شخصية وعادات وتفاوتات مادية. الشيء الذي جعل من الترتاب موضوعا غنيا ومثيرا لكثير من الطروحات النظرية، إلا أنه يمكن القول بأن إسهامات كل من كارل ماركس و ماكس فيبر و بيير بورديو، تعد الأكثر جدارة بالاهتمام، اعتبارا لما طبعها من نفس اشتغال عميق، و من حس نقدي متقدم.

المبحث الأول: سوسولوجيا النخبة: محاولة في التأطير

فكيف نبرر وجود هذا الترتاب في المجتمع المغربي؟ وقبل ما هي ملامحه ومكوناته؟ وما العناصر التاريخية التي ساهمت في تكريسه، على هذا النحو أو ذاك؟ وما شروط إنتاجه وإعادة إنتاجه اجتماعيا، وذلك في مستوى بناء العينية واستثمارها في البوادي أساسا؟

كل محاولة مفترضة للإجابة عن مثل هذه التساؤلات تقتضي تدقيقا مفاهيميا في تنزيلات الترتاب الاجتماعي، كما تستلزم رصدًا لتشكيلات التنخيب والترقي الاجتماعي، وتتبعًا لآليات امتلاك وتوسيع الرساميل الرمزية والمادية التي تساهم في إنتاج الوجاهة الاجتماعية، التي تتوزع بدورها على السلطة والنفوذ. فكل تفاوت، ومهما كان نوعه، ينتج سلطة ما، تتأطر بعدا وقبلا، بنفوذ سياسي أو روحي، يمارسه صاحب هذه السلطة على الآخرين من زبائنه وأتباعه. لهذا كله سينشغل هذا الفصل بإعادة مفاهيم "النخبة" و "الوجاهة" و "التراتب الاجتماعي" إلى متنها السوسولوجي الأصلي، وانفتاحها الأنثروبولوجية الممكنة.

بالرغم من تواتر الكتابات حول النخبة فإن "الضبط المفهومي" الدقيق لها، ما زال مثيرا لكثير من الاختلاف، وذلك بسبب تفرعات المفهوم على مجالات وحساسيات متعددة، وكذا بالنظر إلى بدايات الانشغال العلمي به، والتي بقيت محتشمة ومرتهنة إلى الأجندة السياسية، أكثر منها إلى الأجندة العلمية، ذلك أن السجل

الرأسمالي مثلا كان يعتبر كل حديث مفترض عن النخبة هو "انقلاب" بشكل ما على مبدأ المساواة التي يبشر بها هذا النظام، كما أنه في السجل الاشتراكي يبدو الانشغال بالنخبة "تعارضا" آخر مع ما تنادي به الاشتراكية (قرنفل، 2000.ص.147).

لهذا كان علينا أن ننتظر الأمريكي رايت مليز ليشذ عن القاعدة، وينخرط في مساءلة "النخبة الحاكمة"، ويصير بذلك من أوائل الباحثين الذين أثاروا الانتباه إلى أهمية هذا الموضوع في فهم سياقات التحكم في دواليب المجتمع، ففي كتابه "النخبة الحاكمة" (Mills, 1969) يبين بوضوح تام أن هناك نخبة تمسك بزمام الأمور في مقابل شعب تابع ومقصي من دوائر الانشغال.

أولا: مفهوم النخبة:

يشير ابن منظور إلى أن نخبة القوم خيارهم، إذ يقال جاء في نخب أصحابه أي في خيارهم (ابن منظور، 1997، ص292)، فالنخبة وجمعها نخب تدل على المختار والمتفرد والمتميز عن الأشياء والأعيان، فمن الناحية اللغوية يتضمن معنى النخبة التفضيل أو التحسين أو الاختيار. إلا أن العرب يستعملون مصطلحات أخرى تحيل على نفس المعنى وذلك من قبيل الطليعة والملا والسراة والخاصة والصفوة والأعيان والوجهاء...، فكلها مسميات لمعنى واحد يفيد التميز و"الاختلاف"، عن العامة أو العوام. فالصفوة مثلا تدل على خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه (ابن منظور، 1997، ص292)، والخاصة تحيل على خلاف العامة، من خصه بالشيء يخصه خصا، واختصه أي أفرد به دون غيره، ونخبة القوم ونخبته خيارهم، فالنخبة من نخب الرجل الشيء نخباً وانتخبه أي اختاره وانتقاه وأخذ نخبته (ابن منظور، 1997، ص263).

أما بالنسبة للنخبة في السجل الغربي، فإنها كلمة Elite تتحدر من الكلمة اللاتينية Ex Legere الذي يدل على القطاف والجني والاختيار، وهي الكلمة التي نجد لها مرادفا في القاموس الفرنسي، يحمل نفس المعنى وهو Eslere، وهو الذي نحتت منه كلمة Elite. ولهذا يرى بوتومور بأن الكلمة استعملت في القرن السابع عشر لوصف سلع ذات تفوق معين، ليتمد استعمالها، فيما بعد ليشمل الإشارة إلى فئات اجتماعية متفوقة كالوحدات العسكرية الخاصة أو الطبقات العليا من النبلاء (بوتومور، 1988، ص5)، ويضيف قائلا بأن أول استعمال معروف لكلمة Elite في اللغة الإنجليزية، هو ذلك الوارد في "قاموس أوكسفورد" لسنة 1823، حيث كانت تطلق على فئات اجتماعية معينة، مشيرا إلى أن الاستعمال الواسع لهذه الكلمة في السجل الغربي لم يحدث إلا في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر، "بل إنه لم يصبح كذلك في بريطانيا وأمريكا حتى سنة 1930 عندما انتشر عبر نظريات النخبة، وبشكل خاص عبر كتابات فيلبريدو باريتو (بوتومور، 1988، ص5). وهذا ما يؤكد موريس دوفيرجييه بالقول بأن "باريتو هو من أدخل مفهوم النخب إلى علم الاجتماع، إذ يعرفها بأنها مجموع الناس الذين يظهرون صفات استثنائية ويثبتون تمتعهم بكفاءات عالية في بعض المجالات" (دوفيرجييه، 2001، ص192).

تشير النخبة من الناحية الاصطلاحية إلى الجماعة الأكثر قوة أو نفوذا أو تأثيراً في المجتمع أي النخبة الحاكمة التي تمسك بزمام الأمور، والحكم أو التحكم هنا لا ينسحب فقط على حقل السلطة السياسية، بل يتفرع إلى مختلف حقول المجتمع، فالأمر يتعلق، بالنسبة لرايت مليز، بمجموعة من الأفراد يملكون أقصى ما يمكن امتلاكه من قيمة معينة، وهي بالخصوص السلطة أو النفوذ. (Mills, 1969, p.106).

تدل النخبة بذلك على الأقليات الاستراتيجية التي تتحكم في تدبير وسائل الإنتاج والإكراه التي يتحدث عنها ريمون آرون، حيث يرى أنها توجد في مواقع استراتيجية من المجتمع وتتحكم في السلطة ليس فقط داخل مجالها الخاص بل وكذلك في مجال الشؤون العامة (واتربوري، 2004، ص134)، فالنخبة بحكم موقعها الحيوي في النسق المجتمعي، وبالنظر أيضا إلى أدوارها في صياغة القرار السياسي وتصريفه، تعبر عن وجه الدولة كوسيلة للسيطرة التي

تمارسها أقلية محتكرة للقرار، بما يجعلها فوق المجتمع الذي ينبغي أن تدافع عن مصالحه المشتركة (Balandier, 1979, p.175). لأنها مجموعات تمتلك النفوذ والسلطة المباشرة على النظام الاجتماعي (بودون، 1979، ص 175).

لقد تواترت الأبحاث بعدئذ في هذا الموضوع من طرف باحثين من جنسيات مختلفة كميلوفان دجيلاس الذي اهتم بالنخب في الاتحاد السوفياتي وريمون آرون وأورس ياجي (Hassner, 1965, p.44) الذي أنتج نظرية عامة حول النخب ومساراتها. وفي إطار المحاولات الحديثة لتفسير النخب قام جاك كونين هاتر بدراسة سوسيولوجية للنخب (Coenen, 2004) والتي تبدو برأيه كطبقة مسيرة أو كجماعات تأثير أو ضغط، مسائل جذور النخب من خلال التركيز على بعض المتغيرات كالمال والجاه والسلطة والشهرة، كما اهتم الباحث بشكل انتقاء النخب وإعادة إنتاجها ودورها مقدما الدليل على أن النخبة يمكن توصيفها اعتبارا لإطارها الامتيازي الذي يساعد على تكريس حضورها، وذلك بالنظر إلى سلطتها المتراكمة وغناها وجاهها.

ولعل الصعوبة الخاصة بالنخب كتيمة للدرس والتحليل تتحدد في كونها تقع على خط التماس بين حقلين معرفيين مثيرين جدا للخلاف والاختلاف، فكونها توجد بين أسئلة السياسة والسوسيولوجيا، يجعل النظر العلمي إليها محكوما بعدد من النظريات والتوجهات الإيديولوجية، بل إن هذا الموقع المتداخل الذي تحتله بين الإيديولوجي والعلمي هو الذي آخر التشريح الموضوعي لها، فما كانت تبشر به الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية من قيم، منع بشكل أو بآخر من توسيع النقاش حول قضية النخب، ما دام وجود هذه الأخيرة يؤثر على ما يتنافى وتلك القيم.

بل هناك من يذهب إلى التأكيد على أن "نظريات النخب" و"دوران النخب" قد وضعت أساسا من قبل منظرين ليبراليين لمواجهة المفهوم الماركسي عن الطبقات، وذلك بهدف إظهار أن المجتمعات الرأسمالية لا تعرف طبقات حقيقية تتسم بالديمومة أو الوراثية، وإنما تفرعات يتم الدخول إليها أو الخروج منها بسهولة نسبية (دوفيرجييه، 2001، ص 161)، بمعنى أن أبواب النخبة مشرعة في وجه الجميع، فالأفراد الأذكاء يمكنهم الارتفاع في درجات السلم الاجتماعي حتى ولو كانوا يحتلون مكانة متدنية في بدء حياتهم (دوفيرجييه، 2001، ص 161)، وبالطبع فهذا الطرح لا يخلو من طرح إيديولوجي رام إلى تنفيذ الاتهامات الموجهة للأنظمة الرأسمالية. إلا أنه يمكن القول بأن بارتو هو أعطى لمصطلح النخبة حق موضعه في سلم اهتمامات المعرفة السوسيولوجية، وذلك بإنتاجه لنظرية دوران النخب، كما أنه من جهة أخرى يمكن اعتبار جايتانو موسكا بأنه ذهب بعيدا في بناء نظرية شاملة حول تاريخ وقواعد مختلف النخب.

ثانيا: نظريات النخبة:

لكن ماذا عن تطور المفهوم داخل حقلي علمي الاجتماع والسياسة؟ وكيف أمكن الوصول إلى هذا التحديد المفاهيمي للنخبة؟ وماذا عن التراكم النظري الذي حدث في سوسيولوجيا النخبة؟

على درب الإجابة سنكون مطالبين بالرجوع إلى كبار منطري النخبة لاكتشاف مساءلتهم لها، وأسلوب تعاطيهم معها، وهم بارتو وموسكا وميلز وياجي، الذين، ساهموا، كل من جانبه، وبمقدار ما، في توسيع النقاش حول النخب وآليات التنخب في المجتمع، وفي علاقة/علاقات مع باقي مكونات هذا المجتمع.

أ- فيلريدو بارتو (1848-1923): سيقوده انشغاله بمسألة التوازن والاختلال الاجتماعي، كمفتاح لفهم دوران النخب، إلى التفكير في طبيعة النخب وطرق إنتاجها، منتهيا إلى التأكيد على وجود تمايزات وفروق اجتماعية وسياسية بين الأفراد في المجتمع الواحد، أو لنقل وضعيات متباينة، فيها من يحصل على علامات جيدة، ومن لا يحوز إلا درجات دنيا، فبالنسبة إليه، "فالذين يحصلون على أعلى الدرجات هم الذين نطلق عليهم توصيف النخبة" (Boudon, 2001, p.82). ويضيف بارتو موضحا بأنه يمكن تقسيم النخبة إلى مجموعتين: نخبة حاكمة تشمل الأفراد الذين يقومون بدور مباشر أو غير مباشر في الحكومة، فيما باقي الأفراد يشكلون النخبة غير الحاكمة (دوفيرجييه،

2001، ص161). ولعل هذا التركيز على مقتربي "العلامة الرفيعة" والانتماء إلى الحكومة، هو ما جعل موريس دوفرجيه يصف تعريف باريتو للنخبة بالالتباس، إذ يقول بأن باريتو "يعرف النخبة بواسطة العلامة المرتفعة للمؤهلات الفردية لأعضائها، وهذا الخلط يؤدي، بوعي أو بغير وعي، إلى جعلنا نعتقد أن أصحاب الأدوار والقادة والحكام والزعماء هم الأفراد الأكثر كفاءة" (دوفرجيه، 2001، ص161). إلا أنه وبالرغم من الانتقادات التي وجهت لتفسير باريتو للنخب، لكونه يختزل منطق التنخب والترقي الاجتماعي والسياسي في الحصول على علامات جيدة في "مباراة الحياة"، فإنه لا يمكن تجاوز إسهاماته، في أية محاولة مفترضة لاستدعاء التفكير في النخب.

ب- غيتانو موسكا (1858-1941): إيجابية العمل الذي أنتجه موسكا تكمن في كونه أول من أقام تمييزاً منهجياً بين النخبة والجماهير، إذ يؤكد بأنه، "في كل المجتمعات، تنشأ طبقتان من الناس: طبقة حاكمة وطبقة محكومة، والطبقة الحاكمة هي أقل هاتين الطبقتين عدداً، وهي التي تقوم بكل الوظائف السياسية وتحتكر السلطة وتتمتع بالفوائد التي تكون حصيلة لتلك السلطة" (بوتومور، 1988، ص8).

أما الطبقة الثانية التي تظل مسودة ومتحكما فيها وفقاً لهذا الترتيب، فهي تنضبط لهذا الوضع، بسبب "قوة تنظيم" الطبقة الأولى، فموسكا يعتبر أن "سيطرة أقلية منظمة تطيع دافعاً واحداً، على أكثرية غير منظمة، أمر حتمي، فقوة أية أقلية لا تقاوم" (بوتومور، 1988، ص8)، وليس التنظيم وحده، ما يبرر هذا الخضوع، فأعضاء الأقلية الحاكمة يتميزون بصفات حقيقية أو ظاهرة، هي مدار تقدير شديد وذات تأثير قوي في المجتمع الذي يعيشون فيه" (بوتومور، 1988، ص8).

تبعاً لما انتهى إليه موسكا، ففي كل مجتمع توجد أقلية تحكم الأكثرية، وهي الأقلية التي تتوفر لها إمكانات التأثير والنفوذ، وهو ما يحدث عن طريق استراتيجية دوران النخب، التي تسمح بتغيير ملامحها العضوية، عن طريق دمج فئات اجتماعية جديدة بها، أو بطريقة استبدال النخبة الحاكمة استبدالاً كلياً بنخبة مضادة كما يحدث في الثورات (بوتومور، 1988، ص11).

وكما باريتو، فإن موسكا لم يسلم بدوره من عدد من الانتقادات التي وجهت لمقارنته، على اعتبار أنه قدم مفهوماً مطاطاً للنخبة، إلى الدرجة التي جعلت البعض يشير إلى أن مفهومه ينسحب فقط على الطبقة الوسطى أو أصحاب الممتلكات أو المثقفين. لكنه مع ذلك يظل من أبرز المؤسسين للنقاش السوسيولوجي حول دوران النخب.

ج- رايت ميلز (1916-1962): يرى رايت ميلز أن النخبة في الولايات المتحدة الأمريكية تتوزع على رؤساء الشركات والقادة السياسيين والقادة العسكريين، الذين يشكلون مجتمعين نخبة سلطة واحدة، تمثل طبقة عليا معترف بها اجتماعياً، وإنه من الضروري أن نفكر في استراتيجيات التراتب الاجتماعي وآليات الحراك والترقي الاجتماعي لفهم ما يعمل في المجتمع من وقائع وتفاعلات. وبذلك فقد جعل ميلز من مساءلة خصائص التراتب واختلاف أو انسجام النخب المسيرة لحقول المجتمع (Boudon, 2001, p.83)، هدفاً قرائياً وتحليلياً لإبراز محدودية الطرح الماركسي الذي يرفض وجود سلط أخرى غير سلطة البروليتاريا.

إن النخبة عنده تضم كل الجماعات المؤثرة في بناء وتوجيه القرار السياسي، الشيء الذي يفرض عليها الدخول في تحالفات مع جماعات النفوذ، واللجوء أيضاً إلى مقاومة الصراع بين مختلف الفئات الاجتماعية. وهذا يعني أن التنخب يوجب ميلاد مصالح وامتيازات، تقتضي بدورها الارتكان إلى تحالفات وتضامانات وتنافسات أيضاً.

لقد ربط ميلز بين النخبة وقدرتها على التحكم في صناعة القرار، فهو يقول بأنه "يمكننا أن نعرف نخبة السلطة استناداً إلى وسائل القوة، تماماً كما هو الأمر، بالنسبة لمن يحتلون مراكز القيادة" (بوتومور، 1988، ص11). فالنخبة لديه لا تستند فقط إلى عنصر العلامات الجيدة، كما عند باريتو، ولكنها تتحدد بعامل القوة والقرار، المؤديان إلى امتلاك السلطة والنفوذ.

د- توم بوتومور (1920-1992): أهمية العمل الذي أنتجه بوتومور حول النخب تعود بالأساس إلى "تحقيقه" السوسولوجي لأقوى النقاشات التي عرفها هذا المفهوم، ومحاورته لأغلب الاجتهادات التي تناولته بالدرس والتحليل. فقد قام بوتومور في كتابه "النخبة والمجتمع" باستعراض تاريخ هذا المفهوم، وتاريخ الاشتغال عليه من قبل الرواد من أمثال باريتو وموسكا وميلز، كما ماكس فيبر وكارل مانهايم وريمون آرون، مناقشا أفكار الرواد بكثير من التفكيك، ما جعله في النهاية يتهيب من تقديم تعريف شامل ودال للنخبة، فهل الأمر يتعلق بفئة أو طبقة أو جماعة توصف بالأقلية؟ وهل نحن أمام نخبة واحدة أم نخب متعددة الملامح والمسارات؟ وهل ثمة إمكان ما للانتقال من اللانخبة إلى مصاف النخبة؟ وما الشروط الضرورية لتحقيق هذا الانتقال؟ وما حدود التأثير الذي تمارسه هذه النخبة (الأقلية) على باقي الأكثرية؟

من خلال قراءته لمختلف النقاشات التي أثرت حول النخبة انتهى بوتومور إلى توزيع النخب على "هرم افتراضي" تعطي قمته النخبة السياسية وتحتل قاعدته النخبة الاجتماعية، فيما وسط الهرم يضم أطيافا من النخبتين السياسية والاجتماعية، وهو الوسط الذي يعرف باستمرار صراعا وتدافعا من أجل التنقيب والترقي الاجتماعي. فالنخب تدل على "فئات هي بشكل عام، ذات وظائف ولها وضع رفيع في المجتمع" (بوتومور، 1988، ص13).

وهذا ما يدفع بوتومور إلى القول بأن النخبة السياسية التي تعطي قمة الهرم، ليست ساكنة دائما، فالتنافس الاجتماعي من جهة وآليات إنتاج النخب من جهة ثانية يدفعان باتجاه تغيير ملامح ومكونات هذه النخب وتجديدها. ولهذا فهو يعتبر أن "دراسة النخب عملية مثمرة جدا" (بوتومور، 1988، ص13)، فماثيره من أسئلة بخصوص مكوناتها وعلاقاتها وشروط إنتاجها وإعادة إنتاجها، يظل مفتاحا لفهم كثير من الفعاليات والممارسات والمؤسسات المجتمعية.

هـ- أورس ياغي Urs Jaeggi (1935-): تنبع جدية أعماله من كونه عمل على تصنيف ما أثير حول النخب من أسئلة ونقاشات إلى ثلاث نظريات/مقتربات، فهناك برأيه النظريات التي تستند إلى السلطة في القراءة والتفسير، وهناك النظريات المسنودة بمقرب أخلاقي قيمي، فضلا عن النظريات القائمة على أسس وظيفية.

المقرب الأول: وفي إطار هذا المقرب يدخل أورس ياغي كل النظريات المكيفيلية الجديدة حول النخبة الحاكمة، بالإضافة إلى "كتابات رايت ميلز، الذي يضمه إليهم رغم اختلافاته الإيديولوجية الواضحة مع الأوائل" (قرنفل، 2000، ص149). وتنطلق اشتغالات هذا المقرب من فرضية مؤداها أن كل المجتمعات في صراع دائم من أجل تأمين السلط الرمزية والمادية، وبالطبع فمن يفوز ويحتكر أكبر "الدرجات" من هذه السلط، بفضل الانحدارات الاجتماعية أو مصادر القوة الأخرى، يستحق توصيف النخبة. فثمة تمايز دائم بين أقلية تملك رساميل متعددة تمكنها من التأثير والنفوذ، وأكثرية خاضعة لمنطق الأقلية بسبب محدودية رساميلها التأثيرية، وما يميز هذا المقرب هو أن النخبة الحاكمة هنا تتمتع بصفات شتى وتنتج علاقات سلطوية تبقى آثارها ناتجة وإن تغير الأشخاص (قرنفل، 2000، ص147).

المقرب الثاني: ويهم هذا المقرب مجمل النظريات التي تتوسل في اشتغالها على النخب بثمرات الفكر الفلسفي، وذلك بالتركيز على "المزايا والصفات التي تخول لصاحبها ممارسة الحكم" (قرنفل، 2000، ص147). وهو ما يجعلها تركز على مقرب قيمي أخلاقي، يرتكز في تفسيره على النظريات الفلسفية السياسية الكلاسيكية (الأفلاطونية والأرسطية)، وتندرج ضمن هذا الإطار أعمال كل من تين Taine ورينان Renan ومانهايم Manheim، كما يعتبر ياغي كلا من موسكا وباريتو ممثلين بارزين لهذا المقرب. وتفترض هذه النظريات وجودا طبيعيا لتراتبية اجتماعية تنتج سائدين ومسودين، بل إن هذا التقسيم الهرمي الذي يبرره وجود نخب في المجتمع، يعد ضرورة ووظيفة تملها

ظروف تنظيم المجتمع. ذلك أن هذه النخب تعمل على خلق وتجسيد قيم جديدة تعبر عن المجتمع الجديد وتعمل في نفس الوقت على توجيحه.

المقرب الثالث: في إطار هذا المقرب يضع ياجي مختلف النظريات التي تعتبر أن الوظائف والمهام التي يحتلها ويمارسها الأفراد في المجتمع مرتبطة بقيمهم وانتماءاتهم. ويتأسس هذا المقرب على هذا الشرط المؤسس، وهو أنه لكي يتمكن الفاعل الاجتماعي من لعب دور معين داخل النخبة، أو ينتمي إليها، فإن هذا يتطلب منه أن يوجد في الوضعية المؤسسية الملائمة ويتوفر على الخصائص والمقدرات الضرورية (قرنفل، 2000، ص. 152).. فالانتماء إلى نخبة سياسية معينة يعني ضرورة الانتماء إلى الحقل العام الذي توجد فيه النخبة (Hassner, 1965, p.44).

إن سياقات الاشتغال على النخبة توزعت في غالبيتها على مدخليين للقراءة، الأول يسائل موقع النخبة في سلم التراتبات الاجتماعية، والثاني يفتح على الأداء الاجتماعي لهذه النخبة في مستوى التأثير والفعل بالمجتمع، بحيث كان السؤال الموجه لكثير من هذه المقتربات هو: ما موقع النخبة وما دورها في المجتمع؟ خلاصات أولية: ما الذي يمكن استخلاصه جراء تتبع مختلف هذه الانشغالات بمسألة النخب؟ وأي المقتربات تبدو أكثر فاعلية وتفسيرية في قراءة النخب؟ وكيف السبيل إلى ربط هذه الانشغالات بما نرمي إليه من مساءلة للعينية في المجتمع القروي المغربي؟

إن ما تم تقديمه قبلا، هو على سبيل التمهيد فقط، إنه لا يستجمع كل الاجتهادات المعرفية التي توجهت بأسئلتها وعدتها المنهجية لهذا الموضوع الذي يثير الخلاف أكثر من الاختلاف. فالهدف من وراء التذكير بتلك النقاشات هو التدليل على حيوية المفهوم ومركزيته ضمن قارات معرفية متعددة، اعتبارا لتقاطعاته وترابطاته مع جملة من الممارسات والمؤسسات المجتمعية. ويمكن إجمال الخلاصات التي تم التوصل إليها بناء على هذا الترتيب في الآتي:

أولا: ثقل الإيديولوجيا: نحن أمام مفهوم ملتبس، استدعى مقاربات ومقاربات مضادة، كانت في غالبيتها تعاني من ثقل وتوجيه الإيديولوجيا، بل إن الاهتمام به أو التعاطي معه باحتشام، ظل، وإلى حد بعيد مسكونا بالانتماء إلى سجلي الرأسمالية والاشتراكية، ولعل هذا ما أخرج الضبط المفهومي للنخبة في كثير من الأنساق النظرية. **ثانيا: شروط التنخب:** من النقط الخلافية التي بصمت الاشتغال على هذا المفهوم، نجد آليات إنتاج وإعادة إنتاج النخب، ففي مختلف هذه الاجتهادات المعرفية، لا نكاد نكتشف شروطا واضحة ومتفقا حولها، ولو في حدود دنيا، لاكتشاف منطق التنخب والترقي الاجتماعي، وهو ما يعني أن كل سجل مجتمعي ينتج ويعيد إنتاج نخبه وفقا لشروط خاصة به.

رابعا: واقع اللااكتمال: تماما كما كل المفاهيم الملتبسة، فإن البحث في سوسيولوجيا النخبة، هو مشروع غير مكتمل، إنه جهد معرفي يقتضي الهدم والبناء والتجاوز أيضا، فالنخبة تمتلك راهنية تداولية في مختلف المجتمعات، وتطرح الكثير من الأسئلة اعتبارا لأدوارها وعلاقاتها، وكل بحث في هذا الشأن يظل مبررا بالحسم المؤجل واللااكتمال الدراسي.

خامسا: درس الدرس: من خلال تأمل مختلف هذه الاجتهادات، يبدو أن الانتصار إلى مقرب دون آخر، وفي قطيعة تامة مع باقي الخلاصات التي توصلت إليها المقتربات الأخرى، يكون غير ذي جدوى في مساءلة العينية والتنخب في المجتمعات العربية، لهذا، يتوجب الاشتغال باعتماد حركة ذهاب وإياب بين هذه العدة النظرية المتوافقة والمتعارضة أحيانا ونتائج اختبار العينية ميدانيا في المجال والإنسان. ففي أعمال باريتو وموسكا، كما في خلاصات فير وميلز وماهايم وبودون، وفي انفتاحات الدرس الماركسي والبورديوي، نمارس "درس الدرس" على صعيد القراءة والنمذجة والترتيب، فالحاجة ماسة اليوم إلى "العلم الاجتماعي" الذي يفتح على خلاصات مدارس متعددة، ويقطع بالتالي مع "السيات الدغمائي" والانتصار "الأعمى" لمقرب واحد فقط.

المبحث الثاني: أنثروبولوجيا الوجاهة: استراتيجيات الحرق والبناء

لم تكن النخبة شأنًا سوسيوولوجيا خالصًا، وإنما كانت موضوع نقاش ودرس جادين، وتحت مسميات ومدخلات أخرى، في الدرس الأنثروبولوجي تحديدًا، وبسبب انفتاحه على مختلف حالات الفعل الإنساني، فإن كثيرًا من اجتهاداته، وجدت نفسها، إزاء وقائع بناء وتجذير الوجاهة وبناء التراتبات الاجتماعية، ففي العمل المرجعي لمارسيل موس، والموسوم بالهبة، نفهم جيدًا كيف تشغل الوجاهة، وكيف تبني، في جدل من التنافس والصراع مع الآخر. كما أن أعمالًا أخرى، من توقيع موريس غودلييه ولويس دومون وديل إيكلمان، نكتشف شروط بناء الوجاهة وطرق تعزيزها في عدد من المجتمعات. وعليه، فإن المسعى المعرفي لهذا الفصل يتحدد في اكتشاف "مسالك المعنى" المؤدية إلى أنثروبولوجيا الوجاهة، قصد الاقتراب، وعن طريق مدخل آخر، من أساسيات الوجاهة ومؤدياتها.

أولاً: مارسيل موس واستراتيجية الحرق:

اتخذ مارسيل موس Marcel Mauss من بعض قبائل الهنود الحمر موطنًا اختباريًا للهبة أو بالأحرى لنظام البوتلاتش²، كفعل مؤسس للوجاهة والتمايز الاجتماعي. فمن خلال ملاحظته لأداء الهبة وتبادل الهدايا، خلص مارسيل موس، إلى قاعدة مركزية، مفادها أن "من يحرق أكثر هو من يفوز أخيرًا" (Mauss, 2007, p.13). فاستنادًا إلى مبدئي الأخذ والعطاء المميزان لكل هبة، تبني علاقات وتفاعلات، تؤسس لسلطات ومكانات اجتماعية، داخل هذا النسق أو ذاك، فالهبة والهبة المضادة، إن جاز هذا التعبير، تدخل في إطار صراعي يروم تأمين الوجاهة وتحقيق التميز على الآخر، عن طريق الدخول في "لعبة التحدي الإنفاقي".

إن التبادل "الهبوي" الذي اشتغل عليه مارسيل موس يتأسس على الأخذ والعطاء، والذي لا يقف عند حدود الهبة، كممارسة طارئة، ولكنه يمتد إلى إنتاج وإعادة إنتاج المكانات الاجتماعية، بالمعنى الذي يفيد في إعادة تقسيم الأدوار، وتحديد التراتبات الاجتماعية داخل النسق. فقد لاحظ مارسيل موس في عمله هذا أن الشخص صاحب المكانة الرفيعة في هذه القبائل يقوم بتوزيع نوع معين من الأغذية الصوفية على الضيوف في حفل كبير، وبعد فترة من الزمن يرد الضيوف هذه الأغذية في حفل كبير أيضًا، بعد إضافة أعداد أخرى كبيرة منها قد تصل إلى أضعاف هبته الأصلية، وهو تبادل تصاحبه دائمًا بعض الطقوس والشعائر. وفي هذه المجتمعات تتضمن الهبات نوعًا من الإلزام حيث يتوجب على الموهوب إليه أن يرد الهبة، وبأحسن منها، والامتناع عن القيام بهذا السلوك قد يزعرع المركز الاجتماعي للشخص ويقلل من هيئته ومكانته (Mauss, 2007, p.14).

إن نظام الهبة في هذا النسق يفيد في إعادة ترتيب دائم للمكانات الاجتماعية، وتحصين الوجاهة وإعلان التفوق على المنافسين، وهو ما نكتشفه في اللحظة التي تحتد فيها المنافسة بين الوجهاء الكبار، والذين يضطرون إلى الدخول في عملية "الإحراق"، فمن أجل إحراز التفوق على الآخر/ المنافس، فإن الراغب في حيازة الوجاهة العليا، يضطر إلى إحراق ممتلكاته الثمينة. وبذلك يتم "إحراق صناديق من زيت سمك الشمعة وزيت سمك الحوت، ويتم إحراق المنازل وآلاف الأغذية، ويتم تحطيم أغلى النحاسيات، وترمى في الماء قصد سحق وإذلال المنافس. ولا ترقى، بهذه الطريقة، مكانة المرء نفسه فحسب في السلم الاجتماعي، بل مكانة أسرته أيضًا" (Mauss, 2007, p.14). فعلى "الحارق" أن يقدم الدليل، تلو الدليل، على أنه يستهين بما هو مادي، وبالطبع فمن يحرق أكثر هو من يفوز في النهاية، إذ أن "النجاح" في استراتيجية الحرق، يقود إلى الإعلاء من قيمة المرء داخل الجماعة، ويجعله بالتالي قائدًا لها (Mauss, 2007, p.14).

² يتعلق الأمر بالبوتلاتش potlatch وهو نظام اجتماعي للتبادل الهبوي الذي تمارسه قبائل الكيوكتيل، الهايدا، والتسمشيان من الهنود الحمر الذين يعيشون في الجزء الشمالي الغربي من أمريكا.

إن ما يترتب عن الهبة ليس مجرد تحديد جديد للتراتب الاجتماعي، بل إنه يتضمن بناء علاقات تراتبية بين الواهب والموهوب إليه، خصوصا ذلك الذي لا يستطيع رد الهدية بأحسن منها، فالتفوق المادي والرمزي للواهب، يفترض مقابلا لدى الموهوب إليه، وهو المقابل الذي لا يخرج عن التبعية والخضوع، وبذلك تتحول الهبة إلى سلطة يمارس بواسطتها الواهب نفوذه على الأتباع والمنافسين أيضا. وبصيغة أخرى فإن الهبة "تخلق في ذات الوقت تقاربا وتباعدا بين الواهب والموهوب له، فهي تجمع متضادين: الكرم والإكراه" (Mauss, 2007, p.16). لكن بناء وتجدير المكانة الاجتماعية داخل هذا النظام، لا يتأطر فقط بـ"أزمة" الهبة، بل هو فعل مستمر على مستوى الصراعات من أجل "تملك" المجال وبسط النفوذ عليه، وذلك في سياق الحروب والصيد وباقي مظاهر الحياة الأخرى من زواج ومصاهرة وتوارث وتحالف ولعب أيضا. ففي كل حين يكون الراغب في "بناء الوجاهة" مطالبا بالإنفاق والحرق، وإتقان لعبة الأخذ والعطاء، فالربح والخسارة واردان في كل ممارسة اجتماعية، ومن يخسر أكثر هو من يربح أكثر. يقول مارسيل موس في هذا الصدد بأنه "يتم الحصول على المنزلة الاجتماعية الرفيعة، للأفراد داخل الأخويات والعشائر، وكذا المراتب على اختلاف أنواعها عن طريق صراع الملكية كما بالحرب، أو عن طريق الحظ واللعب أو التحالف والزواج، ويتم تمثيل كل شيء كما لو كان صراعا من أجل الثروة" (Mauss, 2007, p.23) ومن أجل السلطة والنفوذ.

إن نظام الهبة عند هذه القبائل، يستند إلى أجندة زمنية بطيئة نوعا ما، فالموهوب له لا يطلب منه أن يرد الهبة في أقرب وقت ممكن، لأن فعلا كهذا يفسر بأنه ليست له القدرة على تحمل "منطق الهبة" ولا استعداد لديه للدخول في علاقات اجتماعية قوية أساسها إبراز التفوق المادي والرمزي، والدخول في المباراة الإنفاقية. فالرد السريع يحيل الأمر مقايضة، ويخرج "راد الهبة" من مدار التنافس والصراع على الوجاهة، فيما عدم الرد، يعني القبول بوضعية التبعية والخضوع التام للواهب، أما الرد المتردد، وبشكل أعلى قليلا أو كثيرا من قيمة الهبة الأولى، فيدل إما على الدخول في المنافسة وقبول لعبة الحرق، أو الاعتراف بالسيادة والانضواء بالتالي تحت سلطة الواهب، المهم أن استراتيجية الحرق، هي الفيصل والمحدد النهائي للوجاهة والسيادة.

فالقدرة على العطاء، على الكرم، على الإنفاق، تظل محددات أساسية لبناء الوجاهة وإنتاج التمايزات الاجتماعية لدى نظام البوتلاتش، فما يؤسس لهذه الهبات وهذا الإحراق هو الإسهام في "إنتاج تراتبية بين الزعماء والأتباع، وبين الأتباع والموالين، فالوهاب يعني إبراز الرفعة والسمو، إنه السيادة، بينما قبول الهبة دون إعادتها أو إعادة ما هو أغلى منها قليلا أو كثيرا، ومن غير دخول في "تحد إحراقي"، فيعني الخضوع والتحول إلى زبون وخادم، والتصاغر والاندحار، أي الخدمة" (Mauss, 2007, p.24) وهو ما يعني أخيرا أن استراتيجية الإحراق، تحتل بعدا استثماريا، فما ينفقه المرء اليوم، يحصده غدا إخضاعا ونفوذا يمارسه على منافسيه وأتباعه، فإلى أي حد تنطبق أو لا تنطبق "استراتيجية الحرق" هاته على العينية المغربية؟

ثانيا: مورييس غودلييه والرجال العظام:

لكن ما المبرر الذي يدفعنا أنا إلى الرجوع إلى مورييس غودلييه Maurice Godelie، ونحن ننشغل بالبحث عن شواهد متعلقة بأنثروبولوجيا الوجاهة؟ الجواب المحتمل لهذا الاستشكال، نجده في كتابه الموسوم بـ"إنتاج الرجال العظام" (Godelie, 1982) والذي وإن كان منشغلا بالأساس بكشف مولدات "الهيمنة الذكورية" فإنه مع ذلك يظل عتبة دالة لفهم أنثروبولوجيا التفوق والتمايز الاجتماعي. لقد كانت غينيا الجديدة، وبالضبط قبائل الباروياس Baruyas، مدخلا ثريا، بالنسبة لمورييس غودلييه، لتتضيد وبناء مقاربتة للهيمنة، ففي هذا المجال أدرك مدى تعقد نظام القرابة، وتوصل إلى الأسس الخفية لتجذير السلطة وتأمين النفوذ الاجتماعي. إن "السجل الميداني" لغودلييه في غينيا الجديدة، افتتح باستجماع معطيات عن الأرض، والأنساب والقرابة والعلاقات الاجتماعية، وهو ما مكّنه من إحداث تقاربات وتقاطعات بين الملكية من جهة ونظام القرابة من جهة ثانية، الشيء الذي يسمح

بالإحاطة بالأفراد والجماعات من خلال مواقع وأدوار متعددة، خصوصاً وأن هناك معنى ما، لكل ما يؤسسه الأفراد والجماعات من علاقات وتفاعلات.

سيسمح هذا السجل الميداني الثري لغودلييه بكتابة مؤلفه "إنتاج الرجال العظام" والذي خلص فيه إلى أن أهم ظاهرة تنظم سلوك الأفراد والجماعات هي الهيمنة، والهيمنة الذكورية تحديداً. في هذا الكتاب حاول غودلييه أن يقربنا من أهم التحولات التي عرفت هذه القبائل، ارتباطاً بالمد الاستعماري ودخول اقتصاد السوق وبروز النقد كعملة بديلة للملح الذي كان العملة الرئيسية لإنجاز المبادلات التجارية، فضلاً عن التنصير، وأثار ذلك كله على هذا المجتمع الذي يظل منتجاً للرجال العظام.

ففي هذه المجتمعات، حيث العلاقات والتفاعلات على قدر عالٍ من التعقيد، لا يمكن انتهاز التفسيرات الأحادية الخطية، ولا يمكن الادعاء بأن كل شيء يمكن تفسيره بالدين أو الاقتصاد أو القرابة، إن الفهم والتفسير اللذان يقترحهما غودلييه، ينبنيان على البحث في بدايات التشكل والانوجاد. فالتاريخ بالنسبة إليه كان "في المقام الأول تاريخ السلالات الحاكمة والرجال العظام، ولم تكن حياة الناس المتواضعين تذكر في كتب التاريخ، لقد صمت التاريخ تماماً بشأن كل هذا" (Godelie, 1982, p.41)، ومن الضروري والحالة هاته، أن نبحث في شروط إنتاج هؤلاء الرجال العظام.

إن النظام الرمزي للعلاقات يضم ممارسات وخطابات سلطوية، فالأساطير والشعائر التي تتواتر اجتماعياً تظل حاملة للسلطة والهيمنة، ومؤسسة لها في كثير من الأحيان، فكل الممارسات الرمزية التي لاحظها غودلييه لدى هذه القبائل وجد أنها تستند على نظام سلطوي تمييزي، محدد للتراتبات بين الأفراد والجماعات. ففي طقوس المرور (أو العبور) Rites de passage والانتساب إلى العشيرة، وفي تقسيم الفضاءات المنزلية، حيث يجري التمييز بين مجالات الذكورة والأنوثة، وكذا في مختلف الطابوات والرموز الجنسية، تلوح سلط التعيين والتمييز، والتي تنتهي بـ "إنتاج رجال عظام" يحققون التفوق الرمزي والمادي على النساء.

إن النظام الرمزي الذي يحلله غودلييه، ليس مجرد أداة تبرير للسلطة والهيمنة، ولكنه نظام مؤسس ومنتج لهما، وهو ما يعني أن المستويات الرمزية في المجتمع تتحول بدورها إلى سلطة فاعلة تمارس هيمنتها على مجموع النسق، مما يسهم في إنتاج سلط أخرى، تحدد التراتيبات الممكنة في هذا المجتمع أو ذاك (Godelie, 1982, p.64). وعليه فالدرس الذي نفيده أكثر من غودلييه، هو أن الهيمنة، ليست بالضرورة نتاجاً خالصاً لعناصر مادية، ولكنها محصلة أخرى لنظام معقد من الرموز والطقوس، بل إن رمزية السلطة ذاتها تكشف عن سلطة النظام الرمزي.

ثالثاً: لويس دومون والتراتبية الطقوسية:

يعد لويس دومون (1911-1998) (Louis Dumont) من كبار الأنثروبولوجيين الذين ساهموا في إبراز آليات وأنظمة التراتيب الاجتماعي بالهند، ففي اشتغاله على الطبقات المغلقة "الكاست"، انتهى إلى إنتاج مقاربات متقدمة لـ "الإنسان التراتيبي" (Dumont, 1971) ومآلات "الفردانية" (Dumont, 1982). توصل لويس دومون من خلال دراسته للنظام القرابي لجنوب الهند، إلى إبراز الأسس التراتيبية والشروط التي تبرر وتنتج الزواج التصاهري، مؤكداً أن العلاقات بين الجماعات هي امتداد وانعكاس، في الوقت نفسه للعلاقات القرابية الخاصة لأولئك الذين كان لهم الفضل في تأسيس هذه الجماعات، التي بنيت أساساً على الزواج التعددي. تمكن دومون بذلك، ومن خلال استدعائه لنماذج من منطقة "التاميل"، أن يكتشف النمط القرابي السائد بين هذه الجماعات، حيث النسب والميراث والسكن، وقوانين الزواج تتم تقويتها عبر القرابة والمصاهرة، وكذا عبر هدايا طقوسية ووظائف معينة.

تكمّن أهمية الطرح الذي قدمه دومون في اعتماده على زوجي الطاهر والمهندس في تفسير النسق التراتبي الاجتماعي، والذي يظل برأيه أكثر ارتباطا بالنظام الديني السائد محليا، وهو بذلك لا يعتبر الفعل الديني مجرد ممارسة طقوسية مرتبطة بحقل المقدس، بل يراه مؤسسة منتجة للتراتب، وفق ما تنطوي عليه من أسس اقتصادية وسياسية.

تمكن دومون عبر أداء أنثروبولوجي عميق، يهتم بالتفاصيل الدقيقة، ويحاول إقامة صلات بين كل ممارسة وشرط إنتاجها الأولي، من إنجاز "الإنسان التراتبي"، محلا نظام "الكاست" من مداخل متعددة تنفتح على التاريخ والأسطورة والمقدس. وهو ما قاده إلى التأكيد على أن التراتب الاجتماعي في هذا النظام، يظل "تراتبيا طقوسيا"، ينبني على ثنائية الطهارة والدناسة، باعتبارها جوهر هذا النظام ومركزه الأساس (Dumont, 1971, p.25). يقول دومون بأن هذه التراتبية تحوز أهمية عالية في تدبير وإنتاج العلاقات الاجتماعية داخل هذا النسق، بل إنه من الصعب الدخول في تحد لها، حتى من قبل من لا يفيدون منها وتتعارض مطلقا مع مصالحهم (Dumont, 1971, p.25). فما الذي يجعل أناسا بعينهم في نظام "الكاست" الهندي، أكثر تفوقا وسيطرة؟ يجيبنا دومون قائلا بأن منطق امتلاك القوة، يؤدي إلى بروز الهيمنة، وهو ما يعني انبناء التراتبات، التي تنتهي أخيرا بتمركز السلطة لدى أفراد وجماعات معينة تتفوق على الغير، بسبب تدبيرها الجيد لمفارقات الطهارة والدناسة.

إن التراتبية وفقا لهذا الفهم، لا تتأسس ولا تتجذر واقعيا في هذا النظام، بعيدا عن القوة والهيمنة، وهو ما يؤدي بعدا إلى إنتاج السلطة وتأمين النفوذ، فلا تراتب بدون قوة دينية، اقتصادية وسياسية، اعتمادا على مقترب الطهر والدنس. إلا أن تركيز دومون على هذا المقترب في تفسيره للتراتب، لا ينبغي أن ينسينا عناصر أخرى، تلعب أدوارا مهمة في إنتاج الهيمنة والخضوع، وذلك من قبيل الزواج والمصاهرة والانتماء القبلي، وباقي الخيرات الرمزية والمادية الأخرى، التي تعبد الطريق نحو الوجاهة والسيادة.

إن أهم درس يمكن استخلاصه من "الإنسان التراتبي" يكمن أيضا في ذلك التناظر والتقاطع الذي ألح عليهما دومون، وذلك فيما يتعلق بـ "المكانة" و "القوة"، فالنظام الاجتماعي برأيه يتأسس دوما على مبدأ تراتبي، يستند إلى علاقات تقابلية (يسار/يمين، آدم/حواء، الملك/القس)، وفي كل زوج تقابلي، لا يمكن التسليم اعتباطا بمنطق المساواة، بل يجب التأكيد على التمايز والاختلاف، "ففي كل علاقة تقابلية هناك طرف أول يتميز على الطرف الثاني، ويتفوق عليه رمزيا وماديا، إلى درجة احتوائه وبسط نفوذه عليه" (Dumont, 1971, p.34) إن الهيمنة، أو لنقل الوجاهة، - فكل وجاهة هي تمظهر اجتماعي واقتصادي وسياسي للهيمنة- تستند بدورها إلى نظام رمزي لا يمكن إغفاله لحظة البحث عن شروط إنتاجها وإعادة إنتاجها، وهو نظام رمزي تقابلي أو تفاوتي تراتبي، يحدد من يملك ومن لا يملك، وبالتالي من يهين ومن يهين عليه.

رابعا: ديل إيكلمان وإشهار الوجاهة:

وإن كان ديل إيكلمان Dale Eickelman معروفا باشتغاله على "الإسلام في المغرب"، وعلى الطقوس والمعتقدات المحددة لشكل وجوهر التدين، فإن هذا الاهتمام لم يمنعه من أفراد مساحات من اشتغالاته لسلطة الوجاهة، خصوصا وأن مؤسسة الزوايا التي اشتغل عليها تؤسس بدورها للتمايز الاجتماعي وتعيد إنتاج علاقات من الهيمنة والخضوع، وهو ما نكتشفه أيضا في انفتاحه على "المثقف القروي".

يقر ديل إيكلمان بأن "أفراد كل المجتمعات هم مصنفون ضمن طبقة اقتصادية معينة، أو موجودون في موقع من مواقع بنية النفوذ في مجتمعهم، سواء وعوا بذلك التصنيف أم لا" (إيكلمان، 1991، ص.116)، ووجودهم التراتبي هذا هو الذي يحدد التصورات والمواقف والممارسات التي تتوزع على المعتقدات الدينية والانتماءات الحياتية الأخرى.

لقد اشتغل إيكلمان في "المعرفة والسلطة" (إيكلمان، 2009) على "حالة" القاضي الحاج عبد الرحمان المنصوري، متتبعا مسار حياته منذ البدء، ومتطرقا إلى أهم اللحظات التي عاشها، والعلاقات التي انخرط فيها والصعوبات التي واجهها، مستحضرا "قدرته على التكيف" والتفاعل مع معطيات العصر. فسيرة المنصوري، كأحد الأعيان، تكثف الشروط الضرورية لإنتاج الوجاهة، وذلك بسبب عناصر متفرقة مرتبطة بالانتماء العائلي والإرث المخزني والبعد العلائقي، والمستوى الرمزي (الديني والعلمي)، فضلا عن الأرضية الاقتصادية المرتبطة بالمال والجاه. فكلها عناصر مهمة، كانت سببا في إنتاج "وجاهته" وإعادة إنتاجها بالنسبة إليه ولذويه من بعده.

وكل ذلك طبعاً في سياق تداولي عام، يهتم بحديثات الانبناء والتجدير، ويهتم أكثر بالأحداث العامة التي عرفها المغرب آنئذ، والتي كانت سببا في تدعيم الفعل الوجائهي، بدءاً من المخزن والقبيلة والاستعمار ورياح الاستقلال أيضاً، فالوجاهة ليست فعلاً فردياً منفصلاً عن المجتمع، إنها تصطبغ بملامح النسق وتتأثر بكل حركاته وسكناته. وبما أن الشروط التاريخية تسهم في إنتاج الوجاهة أو في إلغائها عن حاملها، فإن العين "الحاذق" هو الذي يعرف كيف يبني وجاهته ويحافظ عليها في ظل اختلال موازين القوى، وفي هذا الصدد يقول إيكلمان بأن "السلوك الناجح لعين بالبادية يفترض إقامة توازن دقيق بين عناصر ضاغطة متنافسة في ما بينها: الأعيان الآخرون ومنافستهم له، وأنصاره في عين المكان، وحاشية السلطان، والإدارة الفرنسية" (إيكلمان، 2009، ص. 203). إنها القدرة على التكيف أو التوفيق التي تعي جيداً كيف يتأتى تدبير التنافس وتحديد التراتبات الاجتماعية وتأمين المواقع الوجائية.

إن النفوذ الذي يعد المؤشر الإجرائي لقياس الوجاهة، يقتضي نوعاً من الإشهار والاستعراض، ولهذا يقول إيكلمان بأن جريدة "السعادة" التي كانت تصدر باللغة العربية، ويتوصل بها كل الأفراد الذين اعتبرتهم السلطات الفرنسية أنهم يشكلون فئة "الأعيان" في المغرب، كانت تسجل بصورة دقيقة الأعراس وغيرها من الحفلات التي كانت نخبة البوادي تقيمها.. إذ تتضمن أخبارها أسماء المدعوين الأعيان، وعدد رؤوس الماشية التي ذبحت.. (إيكلمان، 1991، ص. 135).

يكون الطريق نحو النفوذ عبر إشهار الوجاهة وإظهار التفوق على باقي المنافسين من الأعيان، ولهذا يمضي إيكلمان موضحاً بأن "الأشخاص يحافظون على النفوذ والوجاهة بمدى قدرتهم على إظهار نفوذهم وتأكيدهم علناً، فالاهتمام الذي كان أعيان البوادي يولونه لحضور الأعراس والجنائز وغيرها من المناسبات التي يجتمع فيها الأعيان، لم يكن يعمل على تأكيد أنماط الهيمنة داخل جماعتهم فحسب، بل كان يؤكد أيضاً نفوذهم لدى الغرباء" (إيكلمان، 2009، ص. 202).

يقتضي النفوذ الوجائهي الدخول في إشهارات متواترة، بغية الحفاظ عليه، وهي إشهارات لا تهم الموارد المادية المرتبطة بالإنفاق والإطعام، بل تهم جوانب رمزية أخرى من قبيل تأسيس العلاقات مع مختلف تشكيلات المجتمع، داخليا وخارجيا، وبذلك فالنظر برأيه إلى المجتمع المغربي ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار العلاقات القائمة في هذا المجتمع والفاعلة فيه، والتي تتخطى حدود المناطق والجهات، وذلك من "قبيل العلاقات الزبونية ونفوذ الأعيان والعلماء" (إيكلمان، 2009، ص. 218).

إن ديل إيكلمان، وفي اشتغاله على المقدس من مدخل "إيديولوجيا الزوايا"، وكذا في انفتاحه على السلطة الثقافية في البوادي، يضعنا أما سؤال البناء والتأمين، أي كيف تبني الوجاهة وكيف يجري تسويقها والحفاظ عليها، إلا أن هذا السؤال، يستحث سؤالاً آخر موازياً له، يتعلق بالشروط الأولية للبناء والتأمين، فالقدرة على التكيف، لا تصنع الوجاهة، وإن كانت تحفظها، بل الأساسيات الاقتصادية والرمزية هي التي تبرر وتشرعن ذلك كله.

على سبيل الختام

من المؤكد أننا لم نستعرض هنا مجمل الاتجاهات النظرية التي انشغلت بالنخبة والوجاهة والتراتب الاجتماعي، فقد كانت الغاية من استعراض هذه الأعمال في هذا المقام، فتح آفاق ممكنة للاستشكال، وفتح مداخل ممكنة لقراءة الوجاهية استئناسا بهذه المقتربات المتعددة. وما يمكن الخروج به من خلال هذه المقدمات برفقة مقاربات أنثروبولوجية متنوعة المقتربات والاشتغالات، يمكن إيجازه في ثلاث ملاحظات على الأقل، أولاها تتصل بالحضور القوي للبعد الرمزي في تفسير إنتاج الوجاهة والسلطة والهيمنة، ففي مختلف هذه الاجتهادات التي تعرفنا عليها في هذا المبحث، بدا واضحا ما يلعبه النظام الرمزي في بناء التفاوت والتمايز الاجتماعي، وهو ما يؤكد أن الأسس المادية، وإن كانت مهمة، فإنها لا يمكن أن تكون عنصر حسم في تبرير وإنتاج الوجاهة الاجتماعية.

الملاحظة الثانية تتعلق بآليات تدعيم وتقوية حظوظ التميز الاجتماعي، والتي تظل أكثر ارتباطا بممارسات طقوسية، تتخذ منى استثماريا، تماما كما الأمر في استراتيجية الحرق عند مارسيل موس، فتأمين الوجاهة، في ظل تنافسات وصراعات متواترة، لا يكون ممكنا إلا بالدخول في صيغ من الإنفاق والاستعراء والإشهار المتواصل للخيرات الرمزية والمادية.

فيما الملاحظة الثالثة والأخيرة تتعلق بالنظام الاجتماعي العام الذي تولد فيه ومن خلاله الوجاهة والسلطة والهيمنة، فهو نظام معقد، لا يمكن تفكيكه، إلا بالنظر إليه من زوايا متعددة، وذلك في مستوياته الرمزية والمادية، وفي علاقاته وتفاعلاته، و"فردياته" و"جماعياته"، إنه "نظام ملغز" يستلزم وصفا مكثفا والتقاطا مستمرا لتفاصيل التفاصيل، التي تجري في خطاطات ممارساته وخطاباته المعلنة والمضمرة.

إن هذه الملاحظات الثلاث التي تم استخراجها من "سوسيولوجيا الوجاهة الاجتماعية"، توجب أداء سوسيولوجيا منفتحة على ثمرات كثير من العلوم والمتون، لإنجاز "قراءة هادئة" في سجل أعيان البوادي والحواضر وعلائقهم الممكنة مع "السياسي"، أملا في اكتشاف شروط إنتاج الوجاهة الاجتماعية في كثير من المجتمعات. ولقد أظهرنا خلال تتبع هذا المسار من المقاربات السوسيولوجية، كيف أن الوجاهة الاجتماعية والسياسية ليست نتاجا خالصا لعامل أوحده، وإنما هي إرث متعدد وبناء مستمر، فهي إرث وبناء واستثمار واعتراف واحتكار وتوليف، تتطلب الدخول في تنافسات وتضامات وصراعات وتفاوضات من أجل تدبير وتحسين حظوظها في التفوق والتميز. فشرط إنتاج وإعادة إنتاج العينية notabilité تظل مفتوحة على رساميل مادية ورمزية متعددة، وهي ذات الرساميل التي تظل محدودة الأثر ما لم تكن مسبقة ومتبوعة باستثمار واستعراض واستعراء، فإعلان التفوق على الآخر يستوجب الإطعام والإنفاق والإقراض، بل إنه يتطلب مزيدا من "الحرق" بتعبير مارسيل موس، وذلك من أجل سحب الاعتراف بالوجاهة من لدن المجتمع المحلي.

قائمة المراجع

- ابن منظور، لسان العرب، الجزء السادس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- إيكلمان (ديل)، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
- إيكلمان (ديل)، المعرفة والسلطة في المغرب: صورة من حياة مثقف من البادية في القرن العشرين، ترجمة: محمد أعفيف ومصطفى الوجاني، دار النشر ملاباطا، طنجة، الطبعة الثانية، 2009.
- بوتومور (توم)، النخبة والمجتمع، ترجمة: جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988.

- بودون (ريمون)، فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1986.
- دوفرليه (موريس)، علم اجتماع السياسة، ترجمة: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 2001.
- قرنفل (حسن)، المجتمع المدني والنخبة السياسية: إقصاء أم تكامل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000.
- واتربوري (جون) أمير المؤمنين: الملكية والنخبة السياسية المغربية، ترجمة: عبد الغني أبو العزم، عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف الفلق، مؤسسة الغني، الرباط، الطبعة الأولى، 2004.
- Balandier (George), Anthropologie politique, Editions PUF, Paris. 1979.
- Boudon (Raymond) et Autres, Dictionnaire de sociologie, Editions Larousse, Paris, 2001.
- Coenen-Huther (Jacques), Sociologie des élites, Editions Armand Colin, Paris. 2004.
- Dumont (Louis), Essais sur l'individualisme: Une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne, Editions Seuil, Paris. 1983.
- Dumont (Louis), Homo hierarchicus: Essai sur le système des castes, Editions Gallimard, Paris. 1971.
- Hassner (Pierre), A la recherche de la classe dirigeante: Le débat dans l'histoire des doctrines, Revue française de science politique, Année 1965. Vol.15. N.1. p.44.
- Godelie (Maurice), La production des grands hommes, Editions Fayard. Paris. 1982.
- Mauss (Marcel), Essai sur le don: Forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques, 2007, Edition électronique disponible sur le site: Classiques des sciences sociale: www.uqac.quebec.ca
- Mills (wright), L'élite au pouvoir, Editions Maspero, Paris. 1969.